المحاضرة الثالثة: المدرسة الفرنسية

اختلف الدارسون في تحديد مصطلح ثابت للأدب المقارن، كما اختلفوا في تحديد مفهومه وذلك راجع لاختلاف المدارس فكل مدرسة ربطته بنزعة معينة وفلسفة ذلك العصر، فمن أهم مدارس الأدب المقارن: المدرسة الفرنسية، المدرسة الأمريكية، المدرسة السلافية والمدرسة العربية.

1. التعريف بالمدرسة الفرنسية

تعد المدرسة الفرنسية من أقدم المدارس الأوروبية وأشهرها وأقواها أثرا في الأدب المقارن، لأنها متفوقة ثقافيا على غيرها من الدول في القرن التاسع عشر، فقد كانت مهيأة أكثر من غيرها لاستقبال هذا الدرس المقارن، ظهرت هذه المدرسة مرتبطة بالنزعة القومية في القرن التاسع عشر. وسيطرت عليها النزعة التاريخية والنزعة الوضعية اللتان كانتا منتشرتين خلال القرن التاسع عشر كله وامتدت إلى قسم كبير من القرن العشرين فنبغ الفرنسيون في هذه المرحلة وراح دارسو الأدب يطبقون مقولات التاريخ لذلك تسمى المدرسة التاريخية وهي:

1. مقولة النسبية الزمانية والمكانية: فلكل زمان ومكان تقاليد وذوق وأعراف ونظم وتجارب حياتية خاصة وهذا كل متغير من زمان إلى زمان ومن مكان إلى آخر، وحتى نحكم على قيمة العمل الأدبي لا بد من الرجوع إلى فضائه الزماني والمكاني فلا نحكم عليه ونفسره بأعين عصرنا وتجاربنا فمثلا لا يمكن أن نقرأ قصيدة زهير بن أبي سلمى التي توجه فيها إلى قبيلتي عبس وذبيان، إلا بالتنقيب في زوايا التاريخ عن كل ما أحاط بالعمل من ظروف زمانية ومكانية تمكننا من فهم العمل الأدبي.
2. مقولة السببية: وهي أن الأديب لا يبدع عملا أدبيا من فراغ، وإنما لا بد من مسببات تدفعه إلى نظم نتاجه الأدبي.
3. مقولة النشوء والتطور: وهي نظرية نادى بها داروين والتي تحدث فيها عن فضائل الأنواع وعن فكرة تعرض كل نوع إلى فترة الميلاد والنضج والضعف والاختفاء، فظهر مثل هذا في الأجناس الأدبية مثل: المقامة.
4. مقولة اليقينية: ترفض الدراسات الأدبية التاريخية أي معرفة مبنية عل التكهن والاعتقاد والاحتمال، لا بد للمعرفة بالعمل الأدبي أن تكون مبنية على حقائق تاريخية موثقة.

2. عوامل قيام المدرسة الفرنسية

هناك عوامل أسهمت في جعل فرنسا موطنا لنشأة الأدب المقارن منها:

أ. العامل السياسي

حرص ملوك فرنسا على جعل فرنسا وعاصمتها باريس عاصمة ثقافية لأوروبا، فغدت مركز جذب الفنانين والمثقفين، كما كان للثورة الفرنسية التي قامت في نهاية القرن الثامن عشر دورا رئيسا في تحولات شاملة لم تشمل القطاع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي فقط بل امتد إلى الأدب ومناهجه.

1. العامل الفلسفي

نشأت الدراسات المقارنة في فرنسا متأثرة بأجواء الفلسفة الوضعية(أوغست كونت) التي انتشرت في العلوم الاجتماعية وامتدت إلى الدراسات الأدبية، وسعت إلى وضع قوانين ثابتة للأدب مثل: العلوم الطبيعية.

2. العامل الاستعماري

حرصت فرنسا على خلق ثقافة فرانكفونية في مستعمراتها تتأثر بالثقافة الفرنسية وتتبع لها.

3. الأدب المقارن في المدرسة الفرنسية

ظهر مصطلح الأدب المقارن على يد الناقد فيلمان سنة 1827م، وعرف:"على أنه العلم الذي يبحث ويقارن بين العلاقات المتشابهة بين الآداب المختلفة في لغات مختلفة، أي أن مجاله أدبي بحت، ولا يحاول الربط بين الأدب والفنون والعلوم الإنسانية التطبيقية الأخرى.

4. رواد المدرسة الفرنسية

انقسم رواد المدرسة إلى جيلين: الذي يهمنا الجيل الأول الذي ساد في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والذي عد الأدب المقارن دراسة علاقات التأثر والتأثير بين الأدب الفرنسي والآداب الأوروبية الأخرى، ودراسة الصلات بين الآداب القومية المختلفة دراسة تاريخية مؤيدة بالوثائق والمصادر، فيدرس انتقال الأجناس الأدبية مثلا دراسة تأثير الكوميديا الإسبانية على المسرح الفرنسي، أو تأثير موليير على المسرح الكوميدي في مصر...وغيرها.

كما يرصد حركة الآداب من خلال الموضوعات الأدبية مثلا: يدرس موضوع أوديب عند كل من سوفوكليس وكورني. أو يرصد صورة أمة من خلال إنتاج كاتب أو فريق من الكتاب الأجانب عنها مثل: علاقة الشرق العربي بالغرب الأوروبي، الصورة التي قدمتها أغنية رولاند والتي صورت المعركة التي دارت بين المسلمين والفرنسيين في عهد شالمان. كما يدرس تأثير كاتب معين في أدب أمة أخرى أو كاتب أو جماعة مثل: تأثير الرومانتيكية الفرنسية على الشاعر خليل مطران.

ومثله كل من:

1. فان تيجم: عد كتابه "الأدب المقارن" خلاصة بحث وتفكير لمدة ثلاثين عاما 1930م.
2. فرانسوا جويار
3. جان ماري كاريه

5.من الأسس التي قامت عليها المدرسة الفرنسية

1. المقارنة تكون بمقارنة أدب بأدبٍ فقط.
2. المقارنة تكون بين أدبين اثنين أو أديبَين اثنَين.
3. الصلات التاريخيّة هي شرط رئيس لعقد المقارنة.
4. اختلاف لغة الآداب التي تُقارَن.

6.مآخذ المدرسة الفرنسية

1. **عدم تحديد واضح لموضوع الأدب المقارن ومناهجه.**
2. **التركيز على الأدب في الدراسة واستبعاد الجوانب الجمالية والذوقية للأدب، والاكتفاء بالخارج والولع بتفسير الظواهر الأدبية على أساس حقائق الواقع، وجمع الوثائق والمصادر والوسائط.**
3. **التركيز على العامل القومي والخضوع للنزعة التاريخية.**
4. **يشترط اختلاف اللغة ووجوب الصلات التاريخية لإثبات التأثير والتأثر.**

في النهاية يمكن القول إن المدرسة الفرنسية كانت تقدم البعد الإيديولوجي عن البعد العلمي، فهي تدعو إلى المركزية الأوروبية، وعلى أن أدبها هو الراقي وأن باقي الآداب هي ضعيفة وتابعة لها مما ظهر رواد في الأدب المقارن يرفضون مبادئها ومنهم الناقد الأمريكي رينيه ويليك.